أعلام العرب

٥٦

ابن حزم الأندلسي

المفكر الظاهري الموسوعي

تأليف

الدكتور زكريا ابراهيم

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ ـ ٩٠٥١٤٧

مقدمة

... وهذا عَلَم" آخر من أعلام العرب الخالدين ، يُسعدنا اليوم أن نُضِيفَه الى اخوة له سابقين ... وانه لعَلَم فَذّ في تاريخ العروبة والاسلام : فانه المنطقيّ ، والجدليّ ، والمتكلم ، والفقيه ، والمؤرخ ، والشاعر ، وعالم النفس ... الخ! وسع علمُه كل فنون المعرفة فى عصره ، وخلّف وراءه ثمانين ألف ورقة من شعره ونثره ، ومع ذلك فقد حاول الكثيرون من معاصريه تجريحَه والانتقاص من قدره . ووصفه واحد" من تلاميذه المخلصين فقال : « ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ ، وكرم النفس والتدين ، وما رأيتُ من يقول الشعر على البديهة أسرع منه [1] » ولكنه لقى من عنت أهله واضطهاد ذويه ما جعله يقول : « وأما جهتنا فالحكم فى ذلك ما جرى به المثل السائر : أزهد الناس فى عالِم أهلُه ؛ وقرأتُ فى الانجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبى حرمتَه الا فى بلده [2] » ! واجتمع له من أسباب الغنى والمنصب

---

(١) الحميدى : « جذوة المقتبس » طبعة مصر ، ١٩٥٢ ، ص ٢٩١

(٢) المقرى : « نفح الطيب » الجزء الثانى ، ص ١٣٠ (القاهرة ، نشرة الدكتور فريد الرفاعى) .

والرياسة ما كان حرياً بأن يخلق منه عظيما من عظماء قومه ، ولكنه انصرف عن مطامع الدنيا ومطامح المجد فى سبيل حب العلم والسعى وراء الحق . وعاش فى عصر تهافتَ أهله على جمع الأموال وبناء القصور واقتناص الملذات ، فما فكر الا فى ارضاء مولاه باتيان الحسنات واجتناب السيئات . وكان الناس من حوله يتفاخرون بعلمهم ويتباهون بفضلهم ، وأما هو فكان يقول : « انى والله أعلم من عيـــوب نفسى أكثر مما أعلم من عيوب الناس ونقصهم [1] » . ولقى من أهل عصره أقسى ضروب الجحود والنكران ، حتى لقد اضطر فى كثير من الأحيان الى الهجرة والتنقل بين البلدان ، ثم شاء الله أن يكافئه بعد موته ، فوقف المنصور الموحدى ثالث خلفاء الموحدين على قبره خاشعا يتساءل : « عجبا لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم » ! ثم يلتفت الى من حوله ويشهد شـــهادة التاريخ الحق قائلا : « كل العلماء عيال على ابن حزم » [2] !

... ذلكم هو العالم الأندلسى الكبير على بن أحمـــد بن سعيد بن حزم الذى قدَّم لنا ، منذ أكثر من تسعة قرون من الزمان ، أعمق دراسة نقدية فى علم الأديان ، وأشمل عرض لتاريخ الفِرَق والمذاهب ، وأدق كتابة للسيرة النبوية ولجمهرة أنساب العرب ... الخ . وقد وصـــفه لنا الذهبى فى « تذكرة

---

(١) ابن حزم : « رسالة التلخيص لوجوه التخليص » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار العروبة ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٩

(٢) « نفح الطيب » جـ ٢ ، ص ٢٢١

الحفاظ » فقال : « ابن حـــزم رجل من العلماء الكبار ، فيه أدوات الاجتهاد كاملة ، تقع له المســـائل المحررة والمســـائل الواهية كما يقع لغيره ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، ألا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] » . وروى لنا عبد الواحد بن على المراكشى سيرته ثم قال : « وانما أوردتُ هذه النبذة من أخبار الرجل ... لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم ذكراً فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب ، واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت . وقد أكثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم [2] » . وطعن فيـــه خَصْمه مروان بن حيان ولكنه مع ذلك لم يملك سوى الاعتراف له بـ « المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والاكثار من التصنيف [3] ». واختلف النقاد فى الحكم على قيمة آرائه الفقهيـــة ونظرياته الكلامية ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن ينكر نزاهته فى طلب العلم ، وأماتته فى البحث عن الحقيقة .

ويروى فى هذا الصدد أنه تناظر مع الفقيه الباجى الامام المالكى المشهور ، فقال له الباجى : « أنا أعظم منك همة فى طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت مُعان عليـــه ، فتسـتهر بمشكاة

---

(١) الذهبى : « تذكرة الحفاظ » ، جـ ٣ ، ص ١١٥٢

(٢) عبد الواحد المراكشى : « المعجب » ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٤ ، ص ٤٧ ــ ٤٨

(٣) ياقوت الحموى : « معجم الادباء » ، تحقيق الدكتور فريد الرفاعى ، جـ ١٢ ، ص ٢٤٨

الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق . فقال له ابن حزم : هذا الكلام عليك ، لا لك : لأنك انما طلبت العلم وأنت فى هـــذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالى ، وأنا طلبته فى حال ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرج به الا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخرة [1] » . ولم يجانب ابن حزم الصواب ، فان الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر وطيب العيش كثيراً مابسول للنفس التمادى فى طلب اللذة بدلا من التفانى فى طلب العلم . وسنرى كيف كانت حياة ابن حزم الأندلسى نموذجا لحياة العالم النزيه الذى يطلب العلم للعلم والعمل ، لا للمال والجاه ، أو للشهرة والمجد ... أليس ابن حزم هو الذى يقول : « ان لذة العاقل بتميزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته [1] » ؟

... على أن الباحث الذى يريد الالمام بكل جوانب تفكير ابن حزم لا بد من أن يجد نفســـه مضطراً الى الوقوف على الاطار الحضـــارى لهذا المفكر الموســـوعى الكبير ، خصوصا وقد عاش ابن حزم فى عصر تلاقى فيه الفكران الشرقى والغربى فى رحاب بلاد الأندلس ، وعاش فيه المسلمون جنبا الى جنب مع اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد . وقد كان من شأن هذا الاختلاط أن عمل على ظهور حركات صراع فكرى نجمت عن الاحتكاك العلمى ، مما ترددت أصـــداؤه فى مناقشات ابن

---

(١) ابن حزم : « رسالة الأخلاق » ، القاهرة ، مارس سنة ١٩٦٢ ، سلسلة الثقافة الاسلامية ، ص ٧

حزم الطويلة للنصارى واليهود فى كتاب « الفصـــل فى الملل والأهواء والنحل » ، وفى كتـــاب « الرد على ابن النغـــريلة اليهودى » ، وفى غيرهما من رسائل فيلسوفنا الأندلسى العظيم. ولم يقف ابن حزم موقفا عدائيا من علوم الأوائل ؛ بل لقد أقبل على منطق أرسطو ، وأخذ بطرف من فلسفة اليونان ، وعمل فى الوقت نفسه على الافادة من هذا التراث اليونانى فى دراسته للفقه الاسلامى وشتى المسائل الكلامية . ولا شك أن محاولة ابن حزم التقريب بين الفلسفة والشريعة قد أسهمت الى حد كبير فى اكسابه عداوة أهل السُنَّة من المتحاملين على علوم الأوائل ، خصوصا وأن هؤلاء كانوا يمثلون الغالبية العظمى من رجالات الفكر فى بلاد الأندلس . ومن هنا فقد اســـتهدف ابن حزم للكثير من الحملات بسبب كتابته فى المنطق وتشيُّعه للفلسفة ، بحجة أن الفلسفة وحدود المنطق منافية للشريعة ، وأن كتب أرسطو بوجه خاص محتوية على الكفر وناصرة للالحاد ! وهكذا وجد ابن جزم نفسه مضطراً الى الدفاع عن المنطق ضد هجمات أولئك الخصوم المتحاملين على علوم الأوائل ، كما كان عليه فى الوقت نفسه تبسيط كتب أرسطو فى المنطق ، حتى يفهمها القارىء العادى الذى صدته الترجمات العربية الركيكة عن الاقبال على قراءتها . وكانت ثمرة هذه المحاولة كتاب ابن حزم الطريف فى : « التقـــريب لحد المنطق ، والمدخـــل اليه ، بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية » .

وفضلا عن ذلك ، فقد ترك لنا ابن حزم كتابا فى الأخلاق

سماه باسم : « الأخلاق والسِّيَر فى مداواة النفوس » وصفه المستشرق الاسپانى بلاسيوس فقال : « انه أشبه بسجل يوميّات ، دوّن فيه ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته . وهذه الملاحظات ترد فى الكتاب دون ترتيب يقصد به الى التعليم والتربية ، ولم يُراعَ فى تنسيقها منطق . ونحن اذ نقرؤه ، نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ دقيق الملاحظة أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها فى قالب مبادىء عامة وحِكَم » . وقد لاحظ بعض الباحثين أن هذا الكتاب الصغير الذى صاغ فيه ابن حزم مواعظه على طريقة سنيكا Sénéque وغيره من علماء الأخلاق ، يشبه الى حد غير قليل بعض كتب الأخلاق الحديثة مثل « الطِبَاع » للابرويّير La Bruyère ، و « مقالات فى الأخلاق والسياسة » لفرنسيس بيكون F. Bacon . ولئن كنا نختلف مع القائلين بأن رسالة ابن حزم قد صدرت عن نفس يشوبها التشاؤم والتصوف ، الا أننا لا نرى مانعا من القول بأنها قطعة" أدبية نفسانية ، تصف لنا أخلاق البشر فى أسلوب يفيض حيوية ، وتكشف لنا عن فضائلهم ورذائلهم بطريقة مجردة تماما عن كل ميل أو هوى . وعلى الرغم من أننا نجد ابن حزم ــ فى هذا الكتاب ــ يصارحنا برذائل ونقائص أخلاقية يراها فى نفسه ، ويقررها فى تواضع واخلاص يذكّرانا باعترافات القديس أوغسطين ، الا أننا نجده أيضا يقدم لنا صورة حقيقية حية لنفسية مسلمى الأندلس

فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وقواعد الأخلاق التى كانت مرعية فى مجتمعهم [1] ...

وقد وصف لنا المستشرق الاسبانى بالنثيا Palencia قيمة ابن حزم الفكرية والأدبية فكتب يقول : « ... ففى قرطبة .. ظهر ابن حزم صاحب التواليف الكثيرة فى كل فن ، وهو من أفذاذ الأعلام المعدودين فى تاريخ الأندلس . وان المتأمل فى مؤلفاته وما تحويه من مادة غزيرة ، ليرى بوضوح أن ذلك الانتاج الحافل لا يمكن أن يصدر الا عن حضارة بلغت من التقدم مبلغا عظيما . فذلك التحليل النفسى الدقيق الذى يتجلى فى كتابه « طوق الحمامة » ، وهذه الملاحظات الشخصية النافذة على الرجال وأخلاقهم التى يبديها فى كتاب « الخصال » : ذلك كله يتحدث عن بيئة ذات حضارة عالية . فأما تاريخ الأديان الذى ألفه باسم « الفصل فى الملل والنحل » فقد سبق به أوروبا النصرانية ببضعة قرون ــ كما يقول بحق أستاذى ميجيل آسين پلاسيوس ــ لأن تاريخ الأديان لم يعرف فى الغرب الا فى منتصف القرن التاسع عشر . أما مذهبه الفقهى « الظاهرى » الذى يقوم على التفسير الحرفى للقرآن ، فلم يجد عند فقهاء عصره قبولا ، بل تعقبوه فى عنف وضيقوا عليه الخناق ، ولكن ابن حزم كان قد بعث فيه من الحيوية ما مكن

---

(١) آنخل جنثالث پالنثيا : « تاريخ الفكر الأندلسى » ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢١٧ ــ ٢١٨

له من البقاء دهراً طويلا ، رغم انكار الفقهاء له . وكانت لابن حزم مساجلات ومجادلات حامية اضطر الى خوضها مع الفقهاء دفاعا عن آرائه ، ونخص بالذكر مجالس الجدل التى دارت بينه وبين أبى الوليد الباجى الفقيه الأشـــعرى المعروف ، فقد ظل صداها يتردد فى جوانب العالم الاسلامى دهراً طويلا ، وهى تدل على مواهب ابن حزم ولسانه الحاد اللاذع [1] » .

والحق أنه اذا كان الجانب الأكبر من حياة ابن حـــزم قد انقضى فى الصراع الفكرى والخصومات المذهبية ، فان ثمة جانبا آخر من حياته قد انقضى فى حب الجمال والكتابة عن العشق والعشاق . واذن فلم تكن حياة ابن حزم فى مجموعها صراعا وحربا ، وانما كانت أيضا مودة وحبا ، أو هى على الأصح كانت استقطابا حاداً وتوتراً مستمرا بين الحرب والحب . وقد وصف لنا بعض المؤرخين معارك ابن حزم الفكرية ، فقالوا انه « لم يَكُرّ يلطف صدغه بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، ويُنشِقه مُتَلقّيه انشَاق الخردل ، فيُنَفّر عنه القلوب ، ويوقع بهـــا الندوب ، حتى استهدف الى فقهاء وقته ، فتمالأوا على بُغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه .. الخ [2] » . ووصف لنا

---

(١) المرجع الســابق ، الترجمة العربية ، الفصل الاول ، مقدمة تاريخية ، ص ١٤

(٢) ابن بســام : «الذخيرة » ، المجلد الاول من القسم الاول ، طبعة كلية الآداب بالقاهرة ، ص ١٤١

غيرهم رقته فى الحب ، ودقته فى وصف عواطف المحبين ، فقال ابن قيم الجوزية فى « روضة المحبين » ان كلامه فى العشق تنماع فيه النفس انمياعا ! ... حقا لقد كان ابن حزم فى بعض الأحيان يَعنُف حتى ليكاد حبه يصبح حربا ، كما أنه كان يَرِقُّ حتى لتكاد حربه تصبح حبا ، ولكنه لم يكُفَّ يوما عن الانتقال من قطب الحرب الى قطب الحب ، ومن قطب الحب الى قطب الحرب ، دون أن ينجح يوما فى هجر الحرب أو السلوِّ عن الحب ! وسنحاول فى تضاعيف حديثنا عن شخصيته أن نفسر هذه الثنائية الأليمة أو ذلك التناقض الحاد الذى ظل ابن حزم طوال حياته يعانى منه الكثير ، دون أن يتمكن يوما من بلوغ حالة الاستقرار أو راحة الضمير !

على أن ابن حزم المجادل المصارع الذى تسمَعُ لجدله قعقعة تشبه قعقعة السلاح ، هو بعينه ابن حزم المحب العاشق الذى يحدثنا عما فى الحب من دموع وندوب وجراح ! وهو فى حربه وحبه ذلك المفكر الظاهرى الذى يأخذ الواقع على ما هو عليه ، ويَقبَلُ الحقيقة دائما على ظاهرها ! وقد روى لنا المقرى فى « نفح الطيب » أن ابن حزم التقى يوما — وهو بصحبة صديق له — بوجه حسن ، فقال لصديقه : هذه صورة حسنة ! وقال له صاحبه : « لم نَرَ الا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك » فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سبانى حُسنُه
بطيل ملامى فى الهوى ويقولُ

أمن أجل وَجنه لاحَ لم تَرَ غيره
ولم تَدْرِ كيف الجسم أنت عليلُ
فقلتُ له أسرفتَ فى اللوم فاتئـد
فعنـدى ردٌّ لو أشـاء طـويلُ
ألم تَرَ أنى ظاهـــرىٌّ وأننى
على ما أرى ، حتى يقوم دليلُ ! [1]

* * *

وأما نحن فاننا نبادر الى مصارحة القارىء بأننا لم نستطع أن نكون « ظاهريّين » فى حكمنا على ابن حزم ، فقد كان علينا أن ننفذ الى صميم فكره بروح « التعاطف » التى هى السبيل الأوحد الى فهم أى مذهب فلسفى « من الباطن » ! وهكذا أخذنا على عاتقنا أن نصادق ابن حزم ، على الرغم مما قد يكون فى تفكيره من تعصب أو قَطْع أو جَزْم ، واثقين من أنه ليس أجمـل من التآخى فى العلم ، وليس أقدر من « الحب » على الادراك والفهم !

القاهرة فى ٢ فبراير سنة ١٩٦٦

زكريا ابراهيم

---

(١) المقرى : « نفح الطيب » ، جـ ٦ ، تحقيق الدكتور فريد الرفاعى ، ص ٢١٦ ـ ٢١٨

البلاء الأول

ابن حزم الإنسان

الفصل الأول

عصره

فى مطلع القرن الرابع الهجرى ظهر عبد الرحمن الناصر ، فاستطاع أن ينقذ الحضارة الاسلامية الأندلسية الزاهرة مما كان يتهددها من الأخطار الخارجية والخلافات الداخلية ، وتمكّن بفضل سياسته الحازمة القوية من اخضاع جماعات العرب لسلطانه ، ومهاجمة ممالك النصارى فى الشمال ، فاستتب له الأمر فى الداخل ، وأصبح الفرنجة يخشون سطوته فى الخارج . وقد اقترن هذا الاستقرار السياسى بضرب من الازدهار الفكرى : اذ عُنى عبد الرحمن الناصر بحماية الآداب والعلوم ، وشجّع الأندلسيين على دراسة الرياضيات والفلك والحديث وغير ذلك من العلوم الدينية ، كما أشرك بعضا من علماء اليهود فى الثقافة الأندلسية فبدأت فى عهده دراسة التوراة والتلمود فى اسپانيا . وهكذا تكونت فى قصر الخليفة الأندلسى العظيم مكتبة كبرى كانت هى الدليل الواضح على الدرجة العليا التى بلغتها الثقافة الأندلسية فى عصره .

وفى منتصف القرن الرابع الهجرى (٣٥٠ هـ) توفى عبد الرحمن الناصر ، وخلفه على عرش الخلافة ابنه الحكَم ،

فكان أكثر الخلفاء الأندلسيين تسامحا وحرية فكر ، حتى قيل انه لم يحكم اسپانيا يوما من الأيام حاكم على هذه الدرجة من العلم . وقد نهج الحكم منهاج أبيــه ، وسار على سياســته ، فقضى على خصومه ، وتفرغ بعد ذلك لتنشيط الحركة العلمية فى بلاده . ومما يروى عنه أنه كان يكلف بعض أتباعه استنساخ كل الكتب القيمة ــ قديمة كانت أم حديثة ــ فى بغداد ودمشق والقاهرة والاسكندرية وغيرها ، فكان قصره حافلا بالكتب والمجلدات ، حتى لقد قيل ان عددها كان يربو على أربعمائة ألف كتاب . وقد ذكر لنا المقرى فى كتابه « نفح الطيب » أن الحكم قرأ معظم هــذه المجلدات ، وأنه كان يكتب على كل مجلد نسب المؤلف ومولده ووفاته ، « ويأتى بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن [1] » .

ولم يمكث الحكَم فى الخلافة سوى ست عشرة سنة ؛ فلما مات سنة ٣٦٦ هـ خلفه على عــرش الأندلس ابنهُ هشــام ــ الملقب بالمؤيد ــ ولم يكن قد بلغ العاشرة من عمره ! وبموت الحكَم المستنصر ، انتهى العهدُ الذهبى للأندلس ، وبدأ عصر الفوضى والاضطراب . وكان طبيعيا أن يستبد بالأمر أحــد الأوصياء على الخليفة الطفل ، فظهر المنصــور بن أبى عامر ، وهو الذى استوزر أحمد بن سعيد (والد ابن حزم) ، ونجح

---

(١) بالنثيا : « تاريخ الفكر الاندلسى » ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، سنة ١٩٥٥ ، ص ١٠ (وانظر أيضا كتاب « نفح الطيب » للمقرى ، الجزء الأول ، ص ١٨٤ ــ ١٨٥) .

فى السيطرة على مقاليد الأمور ، ورسم لنفســه خطة بارعة للقضاء على الخصوم والمنافسين ، وأجبر الأندلسيين على الخضوع لحكومة عسكرية استبدية اعتمد فى تكوينها على عناصر من المولّدين والصقالبة والبربر . وقد كان من نتائج هذه السياسة الارهابية أن اضطرمت نيران الفتنة التى قصمت ظهر الأندلس بعيد وفاته ، وبعد أن تراخت يده الحديدية . وكان من نتائج استبداده كذلك أن تعثرت الحضارة الأندلسية فى سيرها على أيامه ، فأحرِقت كتب الفلسفة والفلك وغيرها من العلوم التى كانت موجودة فى مكتبة القصر ، بأمره هو نفسه ، استرضاء منه لجمهرة الفقهاء الذين كانوا قد بدأوا يؤلّبون العامة عليه ! ولكن الغزوات الكثيرة المظفرة التى قام بها المنصور بن أبى عامر قد ساعدت على بقــاء الحكم فى يده لى أن توفى ســنه ٣٩٢ هـ ، بعد سبع وعشرين سنة كان خلالها هو الحاكم الحقيقى لبلاد الأندلس ، فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بالمظفر ، وسار فى الحجابة سيرة أبيه بصفة عامة ، ولم يطل به الأجل ، اذ توفى سنة ٣٩٨ هـ . ولما مات المظفر خلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر ، ولم يكن عبد الرحمن سياســيا بارعا ، أو حكيما حازما ، كما كان أبوه ، بل كان طموحا متسرعا ، فحــاول أن يزيد من سلطانه ، وطمحت نفسه فيما لم يطمح فيه أبوه العاقل، وهو أن يكون أمير المؤمنين ، فحمل الخليفة المستضعف هشاما المؤيد على العهد له بالخلافة بعده ، مما أثار ثائرة الأمويين والمضريين ، وكانت فتنة خلع فيها هشام المؤيد وسجن ؛ وكان

عبد الرحمن الحاجب فى احدى غزواته فلما عاد لتلافى الأمر ، وجد أن أنصاره قد انصرفوا عنه ، وثار به جنده وقتلوه سنة ٣٩٩ هـ ، وانتهى بذلك أمر الدولة العامرية[1] .

ولم يلبث الناس أن بايعوا محمداً بن هشام الذى تلقب بالمهدى ، وبدأ يشدد الوطأة على البرابرة الذين كانوا يقومون بالفتن فى قرطبة ، وسرعان ما هاجم البرابرة المدينـــة وخلعوا المهدى ، وبايعوا من بعده سليمان بن الحكم بن الناصر الذى تلقب بالمستعين سنة ٤٠٠ هـ . وقام النزاع عنيفا بين المهدى والمستعين ، فراح كل منهما يستعين على الآخر بقوى العدو ، و «نهض المستعين فى جنود البرابرة والنصرانية الى قرطبة ، وبرز اليه المهدى فى كافة أهل البلد ، وخاصة الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستلحم منها ما يزيد على عشرين ألفا . وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدتها ومؤذنيها عالم ، ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة[2]» . ولكن المهدى لم يستكن ، بل استعان بملك قســـطيلة الاسپانى ، وتمكن هـــذه المرة من اخراج المســـتعين من قرطبة ، وحارب البربر ، وقامت موقعة أخرى بين البربر ومعهم المستعين ، والمهدى ومعه النصارى ، فانهزم المهـــدى وقتل ، وعاد الأمر الى هشـــام المؤيد ثانية عام ٤٠٣ هـ .

---

(١) سعيد الافغـانى : « ابن حـزم الاندلسى ورسالته فى المفاضـــلة بين الصحابة » ، دمشق ، ١٩٤٠ ، ص ١٤ ــ ١٥

(٢) محمد أبو زهرة : « ابن حزم ــ حياته وعصره ــ آراؤه وفقهه » دار الفكر العربى ، ١٩٥٤ ، ص ٩٦

وقد كانت ثورة قرطبـــة على أولاد المنصـــور ، والفتنة الكبرى التى أعقبتها ، بمثابة الضربة القاضية على الخلافة . وقد تطاحنت على دفة الأمور خلال هذه الفتنة الدموية طوائف شتى : كل منها كان يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة واعادة الأمور الى مجاريهـــا الطبيعية ولكن دون جـــدوى ! وبدأت المهازل تجرى على قدم وســـاق بين المتنافسين على الحكم ، وقام المستعين يناوىء هشاما المؤيد ، وتمكن من العودة الى قرطبة ومعه البربر سنة ٤٠٣ هـ ، وقتل هشام المؤيد سراً ، وخيل الى المستعين أن مقاليد الأمور قد آلت اليه . وتقاسم البرابرة الممالك ، واستقل كل واحـــد منهم باقليم ، ونهض خيران العامرى حاكم المرية وراح يكاتب الأدارسة ويحرض الناس على خلع المستعين ، حتى جاء على بن حمود العلوى من الأدارسة وفتح قرطبة سنة ٤٠٧ هـ ، واستولى على الملك . وقتـــل المســـتعين ، فانقـــرضت دولة الأمويين وبدأت دونة العلويين .

على أن خيران العامرى لم يلبث أن أوجس خيفة من ابن حمود ، فسعى سراً نيعيد الأمر الى الأمويين ، ونجح فى هذا المسعى فبايع أهل الأندلس عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن النـــاصر ، ولقبوه بالمرتضى ســـنة ٤٠٨ هـ . وسنرى عند الحديث عن سيرة ابن حزم كيف أن المفكر الأندلسى الكبير كان من المؤيدين لعبد الرحمن الرابع ـــ الملقب بالمرتضى ـــ فيما كان يسعى اليه من طلب الخلافة بمؤازرة نفر من أنصاره .

وقد سار ابن حزم مع جيش المرتضى لحرب بنى حمود ، ولكن الجيش انهزم فى موقعة غرناطة ، وقتـــل المرتضى ، وأسر ابن حزم ، ثم أخلى سبيله فلجأ الى شاطبة[1] .

وقام عبد الرحمن بن هشام أخو المهـــدى يطلب الخلافة لنفسه ، وكان ابن حزم فى مقـــدمة المؤيدين له ، واســـتطاع عبد الرحمن الخامس ـــ بالفعل ـــ الحصول على الخلافة سنه ٤١٤ هـ ،وسمى نفسه باسم المستظهر ، واســـتقدم ابن حزم وأقامه وزيراً له ، ولكن خلافة المستظهر ـــ كما سنرى فيما بعد ـــ لم تدم أكثر من شهرين ، فقد قتل فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ ، وتعاقب على الخلافة من بعده خلفاء مستضعفون من بنى أميـــة تارة ومن العلويين تارة أخـــرى ، الى أن بويع هشام بن محمد المعتد بالله سنة ٤١٨ ، فاستوزر ابن حزم مرة أخرى ، ولكن الاضطرابات التى قامت فى ولايات الأندلس عندئذ بسبب مطالبـــة وهب أمية بن عبد الرحمن بن هشـــام بالبيعة لنفسه قد عملت على اضـــعاف حكم الأمويين ، فكان آخر خلفائهم هو هشام بن محمد المعتد الذى ختم ملكهم سنة ٤٢٢ هـ . وقد وصف لنا المقرى انقراض الخلافة الأموية فقال : « انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتشر ســـلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، واقتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعـــرب والموالى بالجهات ، واقتسموا

---

(١) بالنثيا : « تاريخ الفكر الاندلسى » ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ١٩٥٥ ، ص ٢١٤